الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

اتجاه جديد فى وزارة المعارف — الهجوم الآثم على الشيخ سيد الرضى سيزلزل المهاجمين عليه وسيغير بعض الناس على الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية واللغوية ... والحق أقوى وأغلب

اتجاه جديد فى وزارة المعارف

لا يمرّ أسبوع بدون أن يطّلع الجمهور على أخبار جديدة عن وزارة المعارف ، فهى فى هذه الأيام مثار حركة ومجال نشاط ، والحركة فى أقبح صورها أجل من السكون ، لأن السكون فى أجمل صوره من نُذُر الفناء

ومن مظاهر الحيوية فى وزارة المعارف لهذا العهد خطب الدكتور هيكل باشا ، وهى خُطب تشهد بأن هذا الرجل يريد أن يجعل لنفسه تاريخاً فى تطوّر التعليم ، وهو بذلك خليق ، فلهذا الرجل لفتات ذوقية واجتماعية تضعه فى الصف الأول بين أقطاب الفكر فى هذا الجيل

والظاهر أن وزارة المعارف أصبحت من الوزارات المجدودة ، فهى منذ أعوام طوال صاحبة الحظ الأوفر من أحرار الرجال . ألم يتولّ أمورها أعلامٌ كان منهم : زكى أبو السعود ، وأحمد ماهر ، ولطفى السيد ، وبهى الدين بركات ، وعلى ماهر ، ومحمد على علوبة ، وحلمى عيسى ، وعلى زكى العرابى ، وأحمد نجيب الهلالى ، ومحمود فهمى النقراشى ؟

وزارة المعارف هى تاج الوزارات ، وإليها يرجع الفضل فى تكوين العقول والقلوب والأذواق ، وعن وزارة المعارف يصدُر النشاط الأدبى والفنى والاجتماعى ، وهى صوت مصر فى الشرق والغرب يوم يوضع الفضل ميزان

تلك وزارة المعارف ، فما حالها فى هذه الأيام ؟

كان يُظَنّ أن المسيطرين على وزارة المعارف قد يوجّهم النظر فيما يوجّه إليهم من الملاحظات عن طريق الجرائد والمجلات ، ثم ظهر أن فى الوزارة رجالاً يقرأون ما يكتب ويسمعون ما يقال ، وإن كان فريق منهم يعيش فى أبراج من العاج !

لقد آمنت وزارة المعارف بأن من الواجب أن يظفر التلميذ المتوسط بالنجاح فى امتحانات النقل والامتحانات النهائية ، فأوصت بأن « توضع الأسئلة بحيث تكون الإجابة فى متناول الأوساط من التلاميذ »

وهذا فتح جديد ، فقد كان مفهوماً أن الامتحان من ضروب التأديب ، ليصح القول بأن « من المحنة جاء الامتحان » !

وماذا تنتظر الأمة حين ينجح التلميذ المتوسط ؟

يقول المتحذلقون إن نجاح الأوساط من التلاميذ قد يجنى على سمة العقلية المصرية ، وهؤلاء المتحذلقون هم مصدر البلاء ، وهم عند التحقيق بعيدون كل البعد من السياسة الحكيمة فى رياضة العقول ، والزمن الغافل هو الذى قضى بأن يكونوا من المربّين

إن النجاح — ولو عن طريق التسامح الرفيق — يقوّى الشخصية المعنوية ، ويزيد فى عزائم التلاميذ ، ويُشعرهم بأن الجِدّ له جزاء ، ولو كان أقل مما يجب أن يتحلى به الطالب الرشيد

لم يعرف المربّون فى مصر أن نتائج الامتحانات العمومية — تلك النتائج الضعيفة الهزيلة — كانت الشاهد على أنهم حُرموا نعمة التوفيق فى إيقاظ الغواق من عزائم التلاميذ ؟ وكانت البرهان على أن الجاذبية بينهم وبين تلاميذهم قد انقطعت أقبح انقطاع ؟ وإلا فكيف جاز أن يقضى التلميذ سنة كاملة بين أيدى أساتذته بدون أن يستفيد ، أو بدون أن تعى آذانه نصف ما يسمع ، أو بدون أن يتجه قلبه إلى معانٍ جديدة تسوقه سوقاً إلى منازل الفضل والتشريف ؟

المربّون هم علة العلل فى فساد هذا الجيل ، فهم السبب فى ذهاب البشاشة من الحياة المدرسية ، وهم الذين حوّلوا الجوّ المدرسى إلى مجازر نفوس ، ومصارع قلوب ، بفضل ما وَقر فى أذهانهم من أن وزارة المعارف لا تريد إلا أن يكونوا جبابرة مستكبرين

لا يصلح المدرس لمهنة التدريس إلا حين يشعر التلميذ بأنه أبرُّ به من أمه وأبيه . أما المدرس الجهم الوجه ، الغليظ الكبد ، القاسى القلب ، فله مكان آخر هو حراسة المساجين . ومن العجيب فى مصر ألا تنال المدارس من العناية بعض ما تنال السجون ! فالسجون مصدر خير على من يعيشون فيها ، لأنها تؤهلهم للحياة ؛ أما المدارس فهى تؤهل بعض أبنائها للتشرد البغيض ، لأنها ترمى ثلاثة أرباعهم فى الشوارع بلا رحمة ولا إشفاق ، بحجة أنهم لا يجيبون وفقاً لنماذج الإجابة ، وهى

صور لا يضعها من شابت نواصيهم فى التعليم إلا بعد إجهاد الفكر فى غفوات الليالى ! !

ليت المدرسين يعلمون ! ليت المدرسين يعلمون ! ولو استطعت لكررت هذه العبارة ألف مرة ! ولكن أين من يسمع ؟ !

يدخل المدرسون إلى أماكن التصحيح فى الامتحانات العمومية وهم لا يدركون ما يُقبِلون عليه من شؤون لا يجوز فيها المزاح ، فيصنعون ما يصنعون بمصاير جيل برىء لا ذنب له غير الاعتراف بأبوّة أولئك « الزاحفين » ، وتكون النتيجة أن يفقد أكثر الشبان فضيلة « الاكتراث » لأنهم يشهدون أن المقصر قد يفوز ، وأن المجاهد قد يخيب . وأين الفوز فى امتحانات لا ينجح فيها بين كل مائة تلميذ أكثر من ثلاثة وعشرين ثم لا يُقبل منهم فى الجامعة غير آحاد !

والأمة المصرية التى تبحث عن المعادن المطمورة فى الصحراء الشرقية والغربية هى ذاتها الأمة المصرية التى تقتل عواطف شبانها بسيف الامتحانات العمومية ؛ ثم يأخذ بعض جلاديها جزاءهم على ذلك القتل ، ولم يبق إلا أن تُحلَّى صدورهم بالأوسمة والنياشين ! !

غيِّروا ما بأنفسكم ، يا بنى آدم ، من المدرسين بهذه البلاد .

غيِّروا ما بأنفسكم ، قبل أن يضع الله السم فيما تنالون من أجور الامتحانات !

المعروف للجميع أن البكالوريا فى مصر أصعب منالاً من البكالوريا فى فرنسا وانجلترا وألمانيا . فهل نحن أعظم من الفرنسيس والإنجليز والألمان ؟

وماذا غنمنا من قوة البكالوريا فى مصر وهى لا تكفى للانتساب إلى الجامعة المصرية إلا فى حدود أضيق من سمّ الخياط ؟

نريد أن نعرف مصاير أبنائنا فى هذا البلد الذى قيل فيه إنه مجمع الغرائب !

نريد أن نعرف إلى أى حد تنتهى الخصومة بين الجامعة ووزارة المعارف !

ولكن من يبلغ هذا الصوت إلى الرجال المسئولين ؟

من يبلغهم هذا الصوت والشيوخ والنواب لا يهتمون بغير مسائل فردية يتقدم فيها طالب على طالب بدرجة أو درجتين ؟

ليس المهمّ أن يُستجوَب وزير المعارف عن هذه التوافه من الشؤون ، وإنما المهمّ أن يُستجوَب عن مصاير المتعلمين فى هذا الجيل

المهمّ حقاً وصدقاً أن ينسى الوزير أنه مسئول أمام الشيوخ والنواب ، وأن يذكر أنه مسئول أمام الضمير المصرى ، والضمير المصرى يصرخ صراخ الجزع والرعب من ضياع أبنائه بين الجامعة ووزارة المعارف

وقد ظهرت تباشير تشهد بأن الوزير قد سمع صراخ الضمير المصرى لهذا العهد ، فمتى يقال إنه نودىَ فأجاب ؟ ومتى نسمع أن التعليم صار من وسائل الحياة الكريمة فى هذه البلاد ؟ متى ؟ متى ؟ علينا أن ندعو ، وعلى الوزير أن يجيب !

الرجوع الأثم على الشيخ سيد المرصفى

فى العدد ٣٩١ نشرت الرسالة كلمة بإمضاء محمد فهيم عيبة جاء فيها أن الأستاذ السباعى بيومى وصف الشيخ المرصفى « بكثير من الأخلاق الذميمة كالغل والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم » وأنه « حكم بأن أخلاقه ذهبت بفضله كما تذهب الريح العصوف بسحيق التراب »

وفى العدد ٣٩٢ نشرت الرسالة ردًّا بإمضاء عبد الرحمن أيوب مع كلمة من الأستاذ السباعى بيومى تشهد بأنه أقرّ ما جاء بذلك الرد ، وهو يلخّص فى أن الأستاذ السباعى حكم بأن الشيخ المرصفى « كان يملكه الغرور » وأن « الأستاذ السباعى فى حديثه عن المبرد وما يتصل به إنما يصدُر فى ذلك عن دراسة بعيدة الأمد » وأن كتابه ظهر فى سنة ١٩٢٣ على حين لم يظهر كتاب الشيخ المرصفى إلا فى سنة ١٩٣٠ ، وأن فهارس كتاب الشيخ المرصفى وعناوينه سُرقت من كتاب الأستاذ السباعى ، وأن المرصفى لم يكن أستاذ السباعى !

وفى العدد نفسه ٣٩٢ نشرت لى الرسالة كلمة عتاب موجهة إلى الأستاذ السباعى بيومى ، وقد جاء فى تلك الكلمة أن الأستاذ تحدث عن أخلاق الشيخ المرصفى بما لا يليق ، « فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك فانفِه فى العدد المقبل ، وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار ، إبقاء على ما بينى وبينك من وداد ، فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ المرصفى بسوء ، ولو كان من أعزّ الأصدقاء »

ثم لقينى صديق عزيز فقال : لم يرضنى تحدّيك للأستاذ السباعى بيومى ، فقد كان يتفق فى أحيان كثيرة أن يجعل

مقالاتك من موضوعات الدروس بدار العلوم وذلك من شواهد الإعجاب

وعندئذ رجعت إلى نفسي فحفظتُ للأستاذ هذا الفضل، وآثرت الصمت، ولكن الأديب علي محمد حسن كتب إليّ خلاصة ما تجنّى به السباعي على المرصفي وأكد أنه قال:

« أنا أحذركم من قراءة كتاب المرصفي فإن فيه من الخطأ أكثر مما يتوهم أن يكون في كتاب الكامل من الخطأ، وأنا أدعوكم مرة أخرى إلى إساءة الظن بهذا الرجل، فقد كان ممتلئاً غروراً » وأكد هذا الأديب أن الأستاذ السباعي لن ينكر ذلك الكلام « وقد كان الحضور كثيرين من أساتذة وطلاب »

ومع هذا فقد كان في النية أن أسكت عن الأستاذ السباعي لأنه صديق، ولأن هجومه لن يقلقل مركز الشيخ المرصفي وهو أرزن من الجبال، ولأن الأقدار قضت بأن يكون الأستاذ السباعي من زملاء الأستاذ محمد هاشم عطية والأستاذ أحمد زكي صفوت، وهذه الزمالة تمنحه عندي طوائف من الحقوق

ثم ماذا؟ ثم رأيت أنه ليس من الصعب أن أدفع الشر عن تاريخ الشيخ المرصفي، وأن أقدّم في الوقت نفسه خدمة أدبية للأستاذ السباعي، ولن يُخدَم الأستاذ السباعي وهو صديق إلا بجذبه إلى الجدل على صفحات الرسالة في أسلوب رفيق لا يمض من مركزه بين تلاميذه بمدرسة دار العلوم

وإنما نصصت على الأسلوب الرفيق لأن أكثر الأدباء يفرّون من وجهي بحجة أني لا ألقاهم إلا بقلم تطير عن أسلاته شظايا الشراسة والعنف

وقد استجاب الأستاذ السباعي لهذه الدعوة، وأعلن على صفحات الرسالة أن في الخصومات الأدبية مجالاً واسعاً للبحث والتدقيق

وما دام الأمر كذلك فأنا أقدم الحقائق الآتية:

أولاً — قضى الشيخ سيد المرصفي شبابه في خدمة كتاب الكامل للمبرد، وظفر من ذلك الجهاد بكتاب اسمه: « رغبة الآمل في شرح الكامل » وقضى الأستاذ السباعي بيومي شبابه في خدمة كتاب الكامل للمبرد، وظفر من ذلك الجهاد بكتاب اسمه: « تهذيب الكامل »

فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن يكون الفرق بين « رغبة الآمل » و « تهذيب الكامل » كالفرق بين المرصفي والسباعي، وهو بونٌ شاسعٌ جداً بحيث يعجز عن اجتيازه نوابغ الطيارين من الإنجليز والألمان، ولو كانوا أقدر من بعض الناس على التحايق في جواء الادعاء

ثانياً — أعلن الأستاذ السباعي أن كتاب الشيخ المرصفي ظهر في سنة ١٩٣٠ والصواب أنه ظهر سنة ١٩٢٧ وليس لهذا التاريخ أهمية، وإنما الأهمية للتاريخ الذي أخذ فيه الشيخ المرصفي يشرح الكامل، وهو تاريخ يرجع إلى أكثر من أربعين سنة يوم أوصاه الشيخ محمد عبده بتدريس « الكامل » لطلاب الأدب من الأزهريين، في ذلك العهد ثار الشيخ الشنقيطي وطلب إلغاء ذلك الدرس، وكان مفهوماً عنده أن المبرّد أكبر من أن يتسامى إلى نقده رجلٌ من المحدثين، ولكن الشيخ محمد عبده تلطف فأرسل الشيخ ابراهيم عاصم إلى الشيخ الشنقيطي ومعه ملزمة من شرح الشيخ المرصفي، فدهش الشيخ الشنقيطي وسارع إلى الاعتذار، ثم صارحَ الشيخ محمد عبده بأن المرصفي لا يقلّ علماً بأسرار اللغة عن المبرّد

ثالثاً — كان كتاب « رغبة الآمل » كاملاً من جميع الجوانب حتى الفهارس في سنة ١٩١٥ وقد رأيته بعيني في ذلك العهد ورآه معي الشيخ الزنكلوني طيّب الله ثراه!

ولن أنسى ما حييتُ تلك العبارة الشعرية التي صرخ بها الشيخ المرصفي وهو يقدّم إلينا شرحه على كتاب المبرد، لن أنساها أبداً، فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المبرّد:

« الله على أيامك، يا بَطَل!! »

والكتاب الذي كان كل من جميع نواحيه حتى الفهارس

عددنا السنوي الممتاز

سيصدر في أوائل المحرم عددنا السنوي الممتاز حافلاً بتمثيل الشخصيات العظيمة والمواقف الكبيرة في الغزوات النبوية والفتوح الإسلامية بقلم أعلام البيان في مصر والشرق العربي. وسيكون بعون الله على الرقم من سوء الأحوال الحاضرة جديراً بجلال الموضوع وسمو الرسالة.

قبل سنة ١٩١٥ هو الكتاب الذى سُرِقَتْ بعض فهارسه من كتاب ظهر فى أواخر سنة ١٩٢٣

رابعاً — لم يكن الشيخ الرصفى يطّلع على شيء من مؤلفات المعاصرين ، فكيف اختص الأستاذ السباعى بتلك العناية ؟ تلك والله إحدى الأعاجيب !

خامساً — كان الشيخ الرصفى أول رجل تسامى إلى نقد مؤلفات الأكابر من القدماء ، وكان أول رجل أقرّ « كرسى الأدب » فى الأزهر الشريف ، وكان أول رجل جعل للأديب مكاناً بين « جماعة كبار العلماء » فكان بتلك الصفات أوحد عصره بلا جدال

فماذا صنع الأستاذ السباعى فى دار العلوم ، ولن يكون إلا الرابع أو الخامس بين أساتذة تلك الدار ، مع التسامح الشديد ؟

سادساً — برّأ الأستاذ السباعى نفسه وطهّر تاريخه من التلمذة للشيخ سيد الرصفى ، فأين هو من تلاميذ الشيخ الرصفى وكان منهم محمد ابراهيم هلال ، ومحمود حسن زناتى ، وأحمد حسن الزيات ، وعلى عبد الرازق ، وطه حسين ؟

سابعاً — ترك الشيخ الرصفى ذخيرة عظيمة ، منها : شرح الكامل ، وشرح الأمالى ، وشرح الحماسة ، وشرح العقد الفريد ، وشرح أراجيز رؤبة وأراجيز العجاج ؛ ومنها : التعقيب على لسان العرب ، والنص على أغلاط صاحب المفصّل والكشاف . فماذا صنع الأستاذ السباعى ، وكان عمره موقوفاً على نقل نصوص الكامل من مكان إلى مكان ؟ !

ثامناً — أثّر الرصفى فى عصره أبلغ التأثير ، فكان الرجل يتشرف بالانتساب إليه ، كما صنعتُ حين رثيته يوم وصل نعيه وأنا طالب فى جامعة باريس ، فكم طالباً يسرُّهم أن يقولوا : إنهم تلاميذ السباعى اليوم ؟ !

تاسعاً — كان تلاميذ الرصفى يقيّدون جميع ما ينطق به ، ولو عن طريق المزاح ، وقد قيدتُ من كلامه ثلاثين كراساً ، فأين ما قيّد تلاميذ السباعى من كلامه البليغ ؟

عاشراً — دخلت مؤلفات الشيخ الرصفى على القلوب بدون استئذان ، ولم يدخل كتاب الأستاذ السباعى دار العلوم إلا بعد أن صار أستاذاً بتلك الدار ، وبعد أن مات الشيخ علاّم !

أما بعد ، فهذه طلائع لغزوة شريفة تنقل عقل الأستاذ السباعى من وضع إلى وضع ، وذلك فضل عليه ، وهو واجب الصديق نحو الصديق ؛ وقد تلطّف فأشار إلى أنه سيخاصمنى خصومة أدبية ، وهى خصومة أرحب بها كل الترحيب ، لأنى أشعر شعوراً صادقاً بأنى موكلٌ بإحياء العزائم والقلوب

وقد أسرف فى الكرم فأعلن أنى لن أجترئ على الكتابة بعد أن ينشر فى « الرسالة » كلمتين !

وأقول : إنى لن أصفح عنه أو يشتغل محرراً متطوعاً بمجلة « الرسالة » ثلاث سنين ، كما قهرت أخاً له من قبل على أن يشتغل محرراً متطوعاً بجريدة « البلاغ » ثلاث سنين !

هى محنةٌ صُبتْ من شاهق على الأستاذ السباعى ، فليتحملها صابراً ، وليوطّن نفسه على أن الخصومة بينى وبينه لن تنتهى قبل بداية شهر مايو ، وهو الوعد الذى حدده الشيخ الأسيوطى لنهاية الحرب بين الإنجليز والألمان ! !

وكيف يخيفنى تهديد الأستاذ السباعى وليس فى ماضيه الأدبى غير نقل نصوص كتاب الكامل من مكان إلى مكان ، وتلك مهمة يقوم بها أحد النساخين بدراهم معدودات ؟ !

أمثلى يخاف من عواقب الجهر بكلمة الحق وقد قضيت دهرى ممتحناً بعداوات الرجال ؟

الأستاذ السباعى يهدد بمقالتين اثنتين ، وهو يعرف من نفسه أكثر مما أعرف ، فهل يتوهم أنى سأخلى له الميدان ليخاطر نفسه كيف شاء ؟ !

لقد تلطفت معه أكثر مما يجب ، ولم يحفظ جميلى ، فكيف يرانى أعطف عليه وقد تردّى بثوب العقوق ؟

ثم أما بعد ، فقد حكمت على الأستاذ السباعى بترك دروسه فى دار العلوم ليشتغل نفسه بمخاطرتى ، وليقول : إن « تهذيب الكامل » أعظم من « رغبة الآمل » ، كما كان نجم الأرض أعظم من نجم السماء ! ! !

وماذا يمنع من أن يكون السباعى أعظم من المرصفى ؟ ماذا يمنع وقد اختلت الموازين وفسدت الدنيا إلى أبعد حدود الفساد ، حتى جاز للأستاذ السباعى أن يهدد صديقه القديم :

زكى مبارك